

علم الاجتماع البراغماتي

براديغم النقد: محاولة معاصرة في تفسير الفعل الإنساني

PRAGMATIC SOCIOLOGY

CRITICAL PARADIGM: CONTEMPORARY TRY TO INTERPRET HUMAN ACTION

د. ربيحة دينارزاد بوزار^{1*}¹ مخبر إستراتيجيات الوقاية ومكافحة المخدرات، جامعة الجلفة (الجزائر).

تاريخ الاستلام: 11 جوان 2020؛ تاريخ المراجعة: 15 نوفمبر 2020؛ تاريخ القبول: 23 جانفي 2021

ملخص:

في فرنسا وبعيدا عن الأثر الذي تركه علماء الاجتماع الكلاسيكيون، ظهر تيار اجتماعي جديد عُرف لدى الباحثين والنقاد بالسوسيولوجيا البراغماتية، تَمَكَّن هذا التيار خلال ثلاثين سنة من إنتاج تحقيقات ميدانية مسّت العديد من ميادين الحياة الاجتماعية. ترأس هذا التيار لوك بولتانسكي الذي اهتم في كتاباته بالمساواة والعدالة واحترام مبدأ النقد الذي اعتبره الكفاءة التي يجب أن يُوظفها كل فرد أثناء ممارسته لأفعاله الاعتيادية والتي تُعتبر معيارا لخلق عدالة اجتماعية شفافة؛ عُرف بولتانسكي بتوظيف مفاهيم جديد ميّزت نظرته للمجتمع ولعلم الاجتماع معاً، كما تحدّى النظرة الكلاسيكية لمُختلف الظواهر الاجتماعية مُقدِّماً البديل الذي اعتبره الشاهد على التحوّلات العلمية والتكنولوجية التي باتت تُميّز العصر.

إهتمّت سوسيولوجيا النقد كما سماها بولتانسكي بالتوفيق بين أشكال الحياة الجماعية والتجارب الفردية التي اعتبرها مظهرا من مظاهر أنظمة الفعل، فعلم الاجتماع لم يعد علماً للكليات إذ هو أولاً وقبل كل شيء علمٌ لعمليات التفرّد.

الكلمات المفتاحية: علم الاجتماع البراغماتي؛ لوك بولتانسكي؛ النقد؛ الامتحان؛ أنظمة الفعل؛ إقتصاديات العظمة.

Abstract:

In France and away from the impact left by classical sociologists a new social trend is emerging known by researchers and critics as pragmatic sociology. Within thirty years, this current managed to produce field investigations which touched many areas of social life this direction was led by Luc Boltanski who in his writings he cared about equality, justice and respect for the principal of criticism what I consider to be the competence that everyone should add while practicing his regular actions and which is considered standard for creating transparent brain justice Boltanski was known for hosting new concepts that distinguished his outlook for both society and sociology. He also challenged the classical theory of various social phenomena advance alternative who considered it a witnesses to scientific and technological transformations that has become the hallmark of the times.

Sociology of criticism cared as Boltanski called it reconciling group life forms and individual experiences which he considered a manifestation of the systems of action. Sociology is no longer a science of every thing as he is first and foremost aware of the process of exclusivity

Keywords: Pragmatic sociology; Luc Boltanski; criticism; the exam; Systems of action ; Economics of greatness.

*Corresponding author: e-mail: rebihadinarzed@gmail.com.

- مقدمة :

السُّوسِيولوجِيَا البرَاغَمَاتِيَّة، أو علم إجتماع الامتَحانات، أو علم إجتماع النَّقد، أو أحيانًا سُوسِيولوجِيَا أنظِمة الفِعل، هي مُسمِيَات أُطلِقت لِتُشير إلى تيار إجتماعي فرنسي جديد ظَهَرَ بِدَايَةِ الثمانينات، في أعمال كلِّ من لوك بولتانسكي* Luc Boltanski ولوران تيفنو Laurent Thévenot ، وكذلك في أعمال ميشال كالون Michelle Callon وبرونو لاتور Bruno Latour في مجال سوسِيولوجِيَا العلوم والتكنولوجيا.

يسعى مُؤسِّسو ومُؤطِّرو هذا التيار على إختلاف توجُّهاتهم واختصاصاتهم الوصول إلى مقارنة اجتماعية تتجاوز الثنائية التقليدية بين الفردانية والكلية، مقارنة تهتم بدراسة الفعل L'action، والوصول إلى أسلوب بحثي إمبريقي يتجاوز مفهوم الهيمنة والخضوع الذي نادى به العديد من النظريات الكلاسيكية إلى مفهوم تنوع المواقف الحياتية وما يتمتع به الفاعلون ضمنها من قدرات وكفاءات تمكّنهم من التكيف والمواجهة والانتفاض، وتهتم بالمكانة التي يجب أن يأخذها النَّقد في الواقع أو ضمن الحقيقة الاجتماعية في معركة دائمة بين ما هو كائن وما يريده الأفراد أن يكون استنادا على مبدأ العدالة والمبادئ الأخلاقية.

يطرح المقال دراسة نظرية تُسلط الضوء على نظرية النقد في ظل السوسِيولوجِيَا البرَاغَمَاتِيَّة، إحدى أهم النظريات المعاصرة الغائبة عن التطبيق والدرس في بحثنا العربية، ما يدفعنا للتساؤل عن ماهيتها وأهميتها وقدرتها على استيعاب الظواهر والمشكلات الاجتماعية في المجتمعات العربية لاسيما نموذج النقد لدى لوك بولتانسكي؟.

1. الأصول التاريخية والاصطلاحية للسوسِيولوجِيَا البرَاغَمَاتِيَّة:

لعلم الاجتماع البرَاغَمَاتِي أصول في الفلسفة التحليلية والنظرية البرَاغَمَاتِيَّة اللسانية، كما إستوحى لوك بولتانسكي فكرة الامتحان التي بنا عليها منطقته من الأعمال الأنثروبولوجية المؤسسة على المنهجية الإمبريقية المعتمدة على التحقيق الميداني والمشاركة.

هو تيار وجد له من المكانة والاعتراف في بداية القرن الحالي ما مكنه من التأثير على العديد من فروع علم الاجتماع كعلم إجتماع العلوم والسياسة وعلم إجتماع الفن والعمل والاقتصاد والصحة والبيئة والتربية

والقصد بالسوسِيولوجِيَا البرَاغَمَاتِيَّة كل علم إجتماع يهتم بالفعل، أي بميكانيزمات الأفعال الفردية اعتمادا على دراسات إمبريقية. (Dupret,2004,p 1245)

وتشترك ثلاث مفاهيم مهمة ضمن براديجم النقد البولتانسكي، هي: (Susen, 2012, p 686-688)

*- لوك بولتانسكي Luc Boltanski عالم إجتماع وشاعر وأديب مسرحي فرنسي من أصول روسية، ومدير دراسات مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية École des hautes études en sciences sociales، ولد في 04 جانفي 1940 بباريس رائد ومستحدث علم الاجتماع البرَاغَمَاتِي في فرنسا، إحتضن مركز علم الاجتماع الأوروبي أعماله الأولى بتسيير من بيير بورديو، فتأثر بالتيار البوردويوي، ولكن الشراكة بين الباحثين إنتهت في منتصف الثمانينات ليتوجه بولتانسكي توجُّها مُغايرا بتبنيه مقارنة النقد البرَاغَمَاتِيَّة.

أولاً: "علم الاجتماع" يُدكرنا هذا المفهوم بأنه على الرغم من تأثر فكر بولتانسكي بتيارات فكرية متعددة، ورغم تعدد التخصصات التي نَبَغَ فيها إلا أن السوسولوجيا البراغماتية أو سوسولوجيا التّقد كما سمّاها مقاربة متجذرة في حقل بحثي متخصص هو علم الاجتماع الإمبريقي، فبعد تأثر بولتانسكي بالفلسفة والأنثروبولوجيا والتاريخ واللسانيات والعلوم السياسية، ها هي اليوم بدورها تتأثر هذه الفروع بفكره ودراساته.

وقد إهتم بولتانسكي بالنقد الذي إعتبره موضوعاً لعلم الاجتماع، وجعل من واجب علم الاجتماع البراغماتي أن يجعل طبيعة ووظيفة كل ما هو إجتماعي مرئية.

ثانياً: "البراغماتية" على الرّغم من أن أعمال بولتانسكي الاجتماعية ذات خاصية نظرية في جملتها، من حيث أنها مؤسسة على أدوات فكرية وإفتراضات فلسفية متقدمة، فإنها تقوم على الإيمان الخالص من أن أهم وظائف علم الاجتماع دراسة ممارسات الفاعلين من مُنطلق أنه لا وجود لمجتمع دون الممارسات اليومية للأفراد التي أطلق عليها بولتانسكي "الفعل الإنساني"، فجعل إهتمامه مقاربه ينصب على أولوية الإهتمام بأفعال الأفراد مهما تكن عادية.

وتسعى السوسولوجيا وفق خاصية البراغماتية إلى تجاوز النزاع القائم بين "عالم الأفراد العاديين والعالم العلمي للمفكرين" وعليه فعلم الاجتماع البراغماتي لا يهتم باختلاف المواقف والتجارب وتعدد الممارسات الإنسانية ولكنه يهتم بشكل أساسي بالدور العالمي للفعل الاجتماعي اليومي الناتج عن كوننا جميعاً أفراداً عاديين*.

هذا ويُحيل مفهوم البراغماتية في قاموس بولتانسكي إلى البراغماتية اللسانية التي تُحيل بدورها إلى الخطاب اللغوي الذي يستعمله الأفراد في مواقف التبرير والتحجيج والذي يستند إلى قاعدة المبادئ الأخلاقية والقيم التي تهيمن على كل عالم من العوالم التي أسسها بولتانسكي والتي تختلف بدورها باختلاف المجتمعات.

ويمكننا القول أن براغماتية بولتانسكي هي براغماتية فرنسية محضة، وهي براغماتية إمبريقية يُحركها نظام النقد. وعليه مصطلح البراغماتية هنا لا يجب أن يجعلنا نعتقد أن هذه المقاربة وريث مباشر للفلسفات البراغماتية تلك التي حمل لواءها شارل ساندرس وجون ديوي ووليام جيمس وجورج هيربرت ميد. (Barthe, De Blic et autres, 2013, P (176) هي براغماتية لأنها تجاوزت النظرة الكلاسيكية للمواضيع الاجتماعية إلى دراسة الممارسات الفعلية للأفراد حتى تلك التي قد تعتبر غير مشروعة أو غير معروفة.

ثالثاً: "النقد" وهو تفسير خالص لما يقوم عليه علم الاجتماع البولتانسكي، حيث يُعتبر مصطلح النقد حجر الأساس الذي تقوم عليه المقاربة السوسيوبراغماتية حتى أن بولتانسكي نفسه قد أطلق على علم الاجتماع البراغماتي تسمية "علم الاجتماع البراغماتي للنقد *Pragmatique de la critique*". (Susen, 2012, p 685).

يقوم مبدأ النقد وفق منطق بولتانسكي على وجود كفاءات ومهارات يتمتع بها الأفراد (الفاعلون الاجتماعيون) تتصف هذه الكفاءات بالنقدية من حيث قدرتها على إصدار أحكام بشأن العلاقات التي بينها الأفراد مع بعضهم

** - يُعتبر كتاب "النقد *De la critique*" للوك بولتانسكي من أهم الأعمال في مجال علم الاجتماع البراغماتي وذلك لأنه يُوضح التوجّه البراغماتي لبولتانسكي أكثر من أعماله المتقدمة، وقد توجه أغلب الباحثين الاجتماعيين إلى كونه إسهام مهم جداً في العلوم الاجتماعية، حيث سعى إلى إيجاد براديفم سوسولوجي جديد "براديفم النقد".

البعض، هذا المفهوم الذي أثار على توجه بولتانسكي النظري تأثيراً كبيراً حيث لازال في كل مناسبة يتعرّض لمظاهر العنف والظلم ويكلمها بحلول تعكس وجوب إحلال العدالة الاجتماعية. وعليه يرتبط النقد في مفاهيم بولتانسكي ارتباطاً وثيقاً بالأخلاق ورحلته نحو تجسيد واقعي للعدالة، فهو الأداة التي يُترجم من خلالها الواقع ويُزاح بواسطتها الستار عن الواقع الاجتماعي الذي يعيشه الأفراد.

ولأن النقد يُعتبر المحرك الأساسي للسوسيولوجيا البراغماتية فإنه في نظر بولتانسكي هو مبرر وجود علم الاجتماع. هذا ويعتمد محمد ناشي مصطلح "الأسلوب Style" للتعبير عن هذه المقاربة لأنه يعتبرها طريقة تفكير وطريقة عمل، تتوافق لدى بعض روادها ولكنها لا تصل إلى قمة الانسجام، وفي بعض الأحيان تتحول إلى خلاف ونزاع. (Barthe, De Blic et autres, 2013, p 177)

2. قراءة في السوسيولوجيا البراغماتية "علم اجتماع النقد":

تأسس الفكر البولتانسكي حول التحليل البراغماتي للنشاطات الإنسانية والتحقيق المعياري المتعلق بعمليات النقد التي يمارسها الأفراد، وأقرب ما يمكن أن يلحق بهذا النهج أن المجتمع عبارة عن مجموعة العلاقات الناشئة عن الممارسات والقابلة للنقد بين الفاعلين الاجتماعيين. (Susen, 2012, p 689) ولأن لوك بولتانسكي قد عمل فترة طويلة إلى جانب بيير بورديو Pierre Bourdieu، هناك من يرى أن المقاربة البراغماتية قد إنبثقت جدلياً عن الأولى، وهو ما يفسر الصراع القائم بينهما. (Bénatouil, 1999, p 282)

وإن كان الضوء قد سلط في هذا المقال على أعمال بولتانسكي إلا أنه يتوجب علينا أن نذكر ما لأعمال برينو لاتور Bruno Latour من أهمية في هذا المجال لاسيما مجال سوسيولوجيا العلوم، ينطلق لاتور من فكرة التعامل مع الأشياء بوصفها مادة تؤثر على توجهات الأفراد وأفعالهم، وذلك من منطلق أن ما يُعتبر مبدأً وأخلاقاً في منطقة لا يعتبر كذلك في منطقة أخرى، بمقتضى هذا تصبح الأشياء كأنها له تأثيره المباشر على تصرفات الأفراد، وعليه المجتمع المُفكر كما عبّر عنه "ليس بنية تحتية للمواد، ولا مواد تُعامل كعلامات، بل هو مجموعة من مواد وبشر يحافظون على علاقات فيما بينهم"، وعليه عوض إعتناق التوجّه الذي تبنته العديد من التيارات الاجتماعية الكلاسيكية في التعامل مع البنية أو المنظومة الاجتماعية بات من المهم أن يُضمّنوها المواد أو الأشياء ذلك أنه في عالمنا الحديث وجهة النظر التي تُحتسب حول المواد هي وجهة نظر العلم. (كابان، دورتيه، 2010، ص 340 بتصرف)

يذهب العديد من الباحثين في مجال علم الاجتماع إلى إعتبار بولتانسكي الأب الروحي والمؤسس الفعلي لهذا الاتجاه، لاسيما من خلال كتابه مع لوران تيفنو "De la justification" 1991، ثم كتاب "النقد De la critique" الصادر سنة 2009 والذي لاقى شهرة كبيرة واختصم في شأنه رواد السوسيولوجيا بين مؤيد لأفكاره ومعارض لها، حاول كل من تيفنو و بولتانسكي إبراز أهمية النقد الذي يُعتبر معياراً للاحتكام للتفرقة بين العالم على ما هو عليه والعالم كما نريده أن يكون، معياراً يجمع بين التجربة المعاشة والأساس القيمي.

وخلافاً لهذا التوجه يذهب Vincent Descombes إلى أن الفضل يعود إلى كانط Kant في وضع الفعل محل تحليل، حيث يُفاضل كانط بين المعرفة الفيزيولوجية وهي "ما فعلته الطبيعة بالإنسان" مُقابل المعرفة البراغماتية " ما يفعله الإنسان- بوصفه كأننا حراً- بنفسه"، أي " معرفة الإنسان بوصفه مواطن في العالم" وهو ما يُعطي فكرة أولية عن

المشروع النظري لعلم الاجتماع البراغماتي، ومنه حداثة هذه المقاربة تكمن في جعل علم الاجتماع يتمحور حول ما يفعله الإنسان بإرادته الحرة، الأفعال التي يُبادر بها ويتحمل مسؤوليتها، والخطابات التي يستخدمها في التعبير. (Bénatouil,1999,p 293)

ينطلق بولتانسكي من إشكالية مُقتضاها: مدى مساهمة نظرية النقد في التشكيك في الحياة الاجتماعية؟ ما هي وظيفة المؤسسات في إطار التأسيس للحياة الاجتماعية؟ ما هو دور النقد في شرعنة الحياة الاجتماعية؟ ما السلطة التي تتمتع بها الهيمنة في إعادة إنتاج الحياة الاجتماعية؟ (Susen, 2012, p 690)

لقد وقف هذا التيار موقفا نقديا اتجاه السوسيولوجيا الكلاسيكية التي تهتم بالكلية على حساب الفرد، ولكنها مع ذلك لا تنتهي إلى المنهجية الفردانية لريمون بودون **Raymond Boudon**، حيث أخذت لها موضعا يقوم على أن الفعل الاجتماعي يتأسس اعتبارا على ما يَعقده الفرد من إتفاقات بين الأفراد أو الجماعات أو الفرد والجماعة في المجتمع يقصد بها التكيف مع المواقف المختلفة التي تصادفه أثناء ممارسته لحياته العادية.

وقد أثارت هذه السوسيولوجيا قلق الفرنسيين وقلق الألمان معا، فأما المنحى الأول فلأنها مقارنة عصرية تقوم على هدم المفاهيم الكلاسيكية التي لطالما قدّستها السوسيولوجيا الفرنسية، والثاني لما تعكسه من ميل نحو توجه لسوسيولوجيا الفعل لماكس فيبر **Max Weber**، حيث كان من الأوائل الذين تحدوا السوسيولوجيا التقليدية وتوجّهوا بالاهتمام نحو فكرة فهم الأفراد لسلوكياتهم وقدرتهم على تفسير الحقيقة الاجتماعية.

من الناحية السياسية علم الاجتماع البراغماتي هو سوسيولوجيا جاءت في الواقع لتُحاكي تحول المجتمعات الرأسمالية، لِيُزيح الستار عن السلطة والهيمنة السياسية والاقتصادية، في محاولة للبحث عن ميزان العدالة وتحقيق تكافؤ الفرص، ذلك أن النقد في نظر بولتانسكي وسيلة لتحقيق الرفاهية الاجتماعية والعدالة والمساواة، فكل تغيير اجتماعي وفق هذه المقاربة يقوم على أساس النقد.

ومن مُنطلق قدرة الفرد على النقد والتبرير تظهر مسألة الشرعية التي يسعى الأفراد إلى إضفاءها على مواقفهم وأحكامهم، وعليه كان لابد من بولتانسكي وتيفنو أن يصلا إلى الطريقة التي من خلالها يقوم الأفراد بتبرير أفعالهم من أجل الوصول إلى إتفاق، وعليه يتمحور علم الاجتماع حسيهما حول " أنظمة التبرير " التي تقع في المدائن أو العوالم السيّات التي سيأتي ذكرها لاحقا.

ولمّا انصبّت دراساتها على الفعل كان لابد لسوسيولوجيا النقد أن تُسلط الضوء على الانشغال الذي يحمله الفاعل في ظلّ كل فعل والذي قد يظهر في شكل رفض موقف ما، أو مطالب من أجل بناء تحالفات، أو المطالبة بتعديل موقف أو إلحاق الفاعلين بخدمة قضية ما...، هنا تظهر عملية النّقد التي تتأسس على طبيعة الاهتمام الذي يتبناه الفاعل، فمن الطبيعي أن يستنكر الأفراد ما لا ينسجم والصالح العام أو ما لا يُعبر عن مبادئ النزاهة والمساواة الاجتماعية، وقد لا يعكس الموقف أيّ اهتمام من الفاعلين وهنا تستوجب ملاحظة كيف يتمكن الفاعلون من خلق وإنتاج إهتمامات جماعية مشتركة. (Barthe,De Blic et autres,2013,p 185)

وقد إهتمت السوسولوجيا البراغماتية بخطاب الفاعلين من مُنطلق كونه أداةً للتبرير والتحجيج ولكونه الجانب التطبيقي للفعل ورد الفعل، فمن الطبيعي إذا أن يهتم الباحث البراغماتي بالآثار الاجتماعية للخطاب، ومنه عملية التحقيق تستوجب أولاً التعرف على الطريقة التي نشأت بها هذه الخطابات وتحت أي ممارسة، ثم التحقيق في آثار الخطاب والممارسة معاً، وهذا للأهمية الكبيرة التي تحملها التبريرات والتفسيرات والانتقادات التي يتبناها الأفراد في مواقفهم المختلفة ووفق أفعالهم المتنوعة، ذلك أن لها من القوة ما يُمكنها من إحداث التغيير الاجتماعي. (Barthe,De Blic et autres,2013,p 186)

من المهم إذا أن ننوه إلى أن الباحث الاجتماعي البراغماتي لا يقف على كل المواقف التي يحاول الأفراد من خلالها التعبير عن آرائهم ولكنه يقف على الآثار التي تتركها هذه الممارسات وهذه الانتقادات، ثم من واجبه الوقوف على صحة ما ذهب إليه الفاعلون المنتقدون أي الوقوف على صحة مشكلة النزاع وصحة الأحكام والانتقادات، ثم إذا ما كان الفاعلون قد وُقِّفوا في وصف حقيقة الواقع المتنازع في شأنه. (Barthe,De Blic et autres,2013,p 187)

ويقوم النقد في رحلة بحثه عن العدالة على مبدأ التناظر Symétrie وهو مبدأ إرشادي يهدف إلى إحداث التوازن بين المواقف حول الصواب والخطأ، حيث يعمل على فحص الحجج وفق شبكة تحليل تقوم على الصحيح والخطأ، ما هو منطقي وما هو غير منطقي، العدالة والظلم. (Nachi,2018,p 14)

3. مفاهيم مهمة في قاموس علم الاجتماع البراغماتي:

إشتملت نظرية سوسولوجيا النقد لبولتانسكي على العديد من المفاهيم المهمة التي تُعتبر القاعدة التي تقوم عليها النظرية، ولأن بولتانسكي متعدد المواهب والتوجهات الفكرية الأمر الذي ساعده على إستعارة العديد من المصطلحات من حقول معرفية أخرى ووظيفتها توظيفاً يُشيد بالاختلاف بين خصوصية المعاصرة في نظريته وتحدي التقليد الكلاسيكي للنظريات الكبرى في علم الاجتماع. وحتى تتمكن من فهم سوسولوجيا بولتانسكي لابد وأن نُؤلي إهتماماً بمفاهيمه المفتاحية:

1-3- التوافق أو الاتفاق Convention: هو شكل من الرضا المُضمر المُتفق بين الأفراد، فحتى يستطيع الأفراد العيش بشراكة تُمكنهم من التوفيق بين أفعالهم وتسمح بمشروعية النقد الذي يوجهونه إلى بعضهم البعض لا بد من التوافق، أي قيم ومبادئ مرجعية يلجأ إليها الفاعلون الاجتماعيون عندما يرغبون بإظهار عدم رضاهم، ذلك أن القيم والمعايير المُضمرّة عادة ما تتكشف أوقات النزاع، وعليه ضمن النزاع سيحاول الأفراد الاستناد إلى مبادئ يُحْكَمون اعتماداً عليها ما هو صحيح أو غير صحيح من أجل الدفاع عن وجهات نظرهم. (كابان، دورتيه، 2010، ص341 بتصرف)

وتتجلى الفكرة في أنه عند وقوع نزاع بين فاعلين اجتماعيين – أيًا كانت طبيعة الفاعل أو دوره أو وظيفته، فرداً كان الفاعل أم جماعة – سيحاول كل طرف إثبات الحجّة على صحة مساعيه، ولا بد في هذا المقام أن يُثبت الحجّة على ما يُقدمه من تبريرات فتظهر الحجج وفق منطق كل طرف، وعليه حتى ينتهي الخلاف لابد من إطار مشترك كما يذهب إليه بولتانسكي فيتم اللجوء إلى القيم والمبادئ الأساسية المشتركة التي يُحْكَمُ إليها الفعل.

وعليه الاتفاق أو التوافق كما ورد ذكره لدى بعض المترجمين هو الإطار المشترك الذي يسمح بالفعل، إذ هو اتفاق على إيقاع العمل أو نوعية العمل المنجز. وهو مجال إهتم به علماء الاقتصاد المتخصصين في العمل والقريبين من تيفنو بما شكّل ما يسمى "اقتصاد التوافقات" (كابان، دورتيه، 2010، ص342 بتصرف)

2.3- المدائن أو العوالم Les Cites:

من أجل إثارة الانتباه إلى تنوع المواقف الاجتماعية ومنطقيات الفعل وأشكال الأحكام قام بولتانسكي وفق مبدأ التعددية التي قامت عليها السوسولوجيا البراغماتية بتأسيس المدائن أو العوالم على اعتبار أنها مجالات مختلفة ومتفرقة للفعل الإنساني، تنشأ خلال كل واحدة منها مجموعة من المبادئ التي قد تنسجم وقد تصطدم، وهي التعددية ذاتها التي تُشكل قيمة إستدلالية تبرز من خلالها كفاءة الفاعلين وفق أنظمة الفعل التي يتفاعلون ضمنها.

ولذلك فهو نموذج تم بناؤه لتحديد مجموعة من المبادئ والقيم المشروعة التي تساعد في تشكيل اتفاق بين الأفراد (Nachi,2018,p 16). يذكر بولتانسكي أنه قد إنطلق مع تيفنو في بناء هذه المدائن من خلفية فلسفية: هوبز وروسو وسان أوغستين، آدم سميث وسان سيمون، ذلك أن كلاً منهم كتب في السياسة وقدم مبدأً كونياً للعدالة، وأخرى ميدانية في محاولة لربط الإشكالات الكبرى في الفلسفة السياسية مع مشكلات الحياة اليومية. (كابان، دورتيه، 2010، ص344 بتصرف)

ضمن كل عالم يستمد الفرد مبرراته وحججه وأحكامه التي تتلاءم مع طبيعة الفعل والموقف، ما يعكس التعددية التي إهتم بها بولتانسكي، تعددية المواقف والسجلات التي تعكس بدورها التعددية النسقية للفعل ما يسمح له بالتصرف بطريقة تتلاءم مع كل مدينة ومع كل موقف وفق ما يتمتع به من كفاءات تسمح له بالتأقلم مع هذه العوالم المتعددة.

ومفهوم المدينة مفهوم مركزي لنموذج إقتصاديات العظمة، مُوجّه نحو مسألة العدالة، "يهدف إلى نمذجة العمليات التي ينخرط فيها الممثلون أثناء الجدل بينهم والتبرير"، وعليه هناك إرتباط وثيق بين النزاع والتوجه نحو العدالة، ذلك أن هدف نموذج إقتصاديات المعرفة هو فض النزاع سلمياً دون اللجوء إلى العنف، وعليه تسمح هذه المدن بالوصول إلى إتفاقات بين الأفراد لها صفة الشرعية والتعميم. (Nachi,2018,p 26)

ومن الخطأ اعتبار علم الاجتماع البراغماتي أداةً للتصنيف فحسب، إذ تُعتبر نظرية تدرس دينامية الاتفاق، والإجراءات التي من خلالها يلتزم الفاعلون بمبادئ الحياة الاجتماعية (Taupin,2015,p 164). وعليه بولتانسكي لم يخلق هذه المدائن من العدم ولكنّه إستنبطها عن فلاسفة سبقوه، ويمكن إبراز المدائن بالشرح وفق ما يلي:

- مدينة الإلهام *La cité inspirée*: مفهوم مأخوذ من كتابات القديس أوغستين *Augustine* حول النعمة الإلهية *La Grace* (كابان، دورتيه، 2010، ص346)، يتم تصور العظمة في هذه المدينة في شكل علاقة مباشرة بمبدأ خارجي سامي، مُكتسب من خلال الوصول إلى حالة من السُّمو الروحي، ويعني الإلهام الانفصال عن صفائر العالم المادي، والبحث عن بناء الذات دون الاهتمام أو الالتفات إلى رأي الآخرين، ذلك أن نقاء الروح التي يبحث عنها لا تهتم باعتراف الآخرين، إنّها العظمة التي تُعزز السُّمو عن الذات بخدمة الآخرين، وعليه فهذه العظمة لصيقة بالجسد الذي يُعتبر

تجسيدا للروح. من بين الأعمال التي يشتملها نطاق العظمة المهمة أعمال القديسين والفنانين الذين لا يسعون وراء التقدير أو المال، والناشطون السياسيون الذين يعملون في سبيل تحقيق الصالح العام والذين قد تقودهم أعمالهم أحيانا إلى الشهادة، فتجربة الإلهام هي تجربة يتخلى أصحابها عن المجد، لهم أنفسهم يسكنها الزهد والانفصال عن عالم الماديات والاستسلام للسُّمو الروحي. (Nachi,2018,p 27-28)

- مدينة المَزل **La cité domestique**: تعكس نظرة بوسويه **Boussuet** ، يجمع بين أفراد هذه المدينة رباط القرابة، تقوم على علاقات الاعتماد والحماية الموجودة بين أفراد العائلة أو السلالة. (كابان، دورتيه، 2010، ص346)

تتميز الروابط ضمن هذا العالم بكونها روابط شخصية. تتجلى العظمة في هذه المدينة اعتمادا على التسلسل الهرمي للأفراد، والتي تُقاس اعتمادا على مبدأ التبعية التي يستمد من خلالها الأفراد سلطةً تُمكنهم من ممارسة السلطة على أفراد آخرين " كل فرد موجود بين قوة عليا يستمد منها شرعية الوصول إلى العظمة. ومن هم أقل منه درجة يحتضنهم ويُمارس عليهم السلطة". (Nachi,2018,p 28)

- مدينة الرأي **La cité de l'opinion**: مدينة مستوحاة من وصف هوبز **Hobbes** للشرف، في هذه المدينة الأفراد ذو الأهمية يكونون من الشخصيات المعروفة، قادة رأي وصحفيين وغيرهم، وتكمن قيمتهم بالاعتراف العام (كابان، دورتيه، 2010، ص346 بتصرف). تعتمد عظمة الفرد بشكل كامل على رأي الآخرين في ذاتك، ورأي الآخرين يعتمد كلياً على عظمة الشخص التي تظهر في صورة المجد والسمعة الطيبة التي يتمتع بها الفرد. (Nachi,2018,p 29)

- مدينة المواطنة **La cité civique**: المستوحاة من فكرة العقد الاجتماعي لجان جاك روسو **Jean-Jacques Rousseau**، حيث يرتبط الناس مع بعضهم البعض عن طريق مفهوم المصلحة العامة، وتتصف العلاقات بالشرعية والصفة التمثيلية (كابان، دورتيه، 2010، ص346 بتصرف). إن العظمة في هذه المدينة تظهر عندما "يتخلى المواطنون عن تفرّدهم ويفصلون أنفسهم عن مصالحهم الخاصة من أجل الصالح العام". (Nachi,2018,p 29)

- مدينة الصنّاعة **La cité industrielle**: هو عالم المردود من سان سيمون **Saint-Simon**، في هذا العالم ما يُحتسب هو أن تكون خبيراً، وأن تستخدم مناهج وأدوات إجرائية ناجعة. (كابان، دورتيه، 2010، ص346)

وتعتمد العظمة في هذه المدينة على الكفاءة والقدرات المهنية وإنتاج السلع المادية، هو موجه إذا نحو التنظيم والبرمجة والاستثمار، أي نحو المستقبل. ومنه مصطلح المنفعة مصطلح مرادف لمدينة الصناعة. وتُقاس عظمة الأفراد بكفاءاتهم وقدرتهم على الاستجابة بفعالية للاحتياجات، فالصغير في هذا العالم هو الفرد غير مزود بالذكاء أو الأقل فاعلية أو الذي يجد صعوبة في الاندماج ضمن المؤسسة العاملة، بالمقابل الكبير أو العظيم هو الذي يمتلك هذه القدرات، ويتقن استخدام الأدوات التقنية، وباختصار العظماء هم الخبراء الذين يُشكلون تسلسلاً هرمياً للعظمتا اعتمادا على درجات غير متساوية في تحقيق المنفعة الاجتماعية، وعليه في هذه المدينة نحن لا "نحكّم" ولكننا "نُدِير" فالسياسة هي "علم الإنتاج". (Nachi,2018,p 30)

- مدينة التِجّارة **La cité marchande**: كما حدّدها آدم سميث **Adam Smith**. ترتبط العظمة في هذه المدينة باكتساب الثروة، فرباط التجارة يُوجد بين الأفراد عن طريق وساطة البضائع النادرة المتداولة بحرية لترضي تذوقات

الأفراد واحتياجاتهم، وعليه تُستخدم هذه السلع من أجل تعزيز العلاقات بين الأفراد التي تظهر في السوق والتجارة، فتُقاس العظمة بالبرج والثروة، فالعظيم هو الذي يملك ثروة كبيرة، فنجد في هذا العالم: متنافسون، عملاء، زبائن، مشترون، بائعون وأرباح. (Nachi,2018,p 31)

و يوضح بولتانسكي أن مفهوم العالم أكبر وأوسع من مفهوم المدائن، فالمدينة هو النموذج المجرد الذي يجد تطبيقه في العالم الذي يُعتبر تجسيدا حقيقيا للعظمة وتطبيقا فعليا لمبادئ العدالة، وعليه فالمدن عبارة عن ميتافيزيقا للعظمة. (Nachi,2018,p 32)

3.3- الكفاءة La Compétence: يقصد بولتانسكي وتيفنو بالكفاءة القدرة على تحكيم المبادئ الأخلاقية في الوصول إلى إتفاق حول النزاع باعتماد الأفراد على قدرات ومؤهلات خطابية وجسدية وفكرية تمكنهم من التحجيج والتبرير. ووفقا لنظام العوالم أو المدائن سابق الذكر فإنه لكل مدينة كفاءاتها الخاصة التي يتوجب على الأفراد احترامها، وعليه يتمكن الفرد من إختبار كفاءاته وفق الموقف الذي يعيشه.

والفرضية هي أن الأفراد مُزودون بكفاءة براغماتية وهي التي تسمح لهم بأداء الفعل في العالم المشترك، ونموذج العظمة المُقدم من قبل بولتانسكي وتيفنو ما هو إلا نموذج للكفاءة، والذي يفترض وجود قدرات مشتركة يمتلكها الفاعلون الاجتماعيون والتي تسمح لهم بتنسيق أعمالهم أو بالتبرير وكذا تُرى لهم سبل الاتفاق. ولا يهتم علم الاجتماع البراغماتي بالطريقة التي يتم بها إكتساب هذه الكفاءة فهذا في نظرهم يعود إلى العلوم المعرفية أو إلى فلسفة العقل، أما علم الاجتماع فيهتم بالكشف ميدانيا عن الطريقة التي يختبر بها الأفراد هذه الكفاءات، طريقة تفاعلهم مع قدراتهم العقلية الخاصة حسب الحالة أو الموقف، فتظهر الكفاءة الأخلاقية أو القدرة على إصدار الحكم، هذه الكفاءة الأخلاقية هي كفاءة معرفية مشتركة بين الفاعلين، هي كفاءة العام الذي يُظهره الفاعلون في تجاوز الخاص – إهتمامهم بقضايا أكبر من ذواتهم – أو ما يسميه بولتانسكي مبدأ عالي مشترك *Principe supérieure commun*. هذا ولا يقتصر هذا التيار على كفاءة الحس الأخلاقي حيث يذكر: " للتحكم بشكل عادل، يجب كذلك على الفرد أن يكون قادرا على التعرف على طبيعة الموقف وتنفيذ مبدأ العدالة الذي يتوافق معه"، وعليه فالكفاءة الأخلاقية أكبر من كونها مجرد حسٍ أخلاقيّ فهي كفاءة معرفية عامة واقعية، يمكن ملاحظتها ميدانيا. (Nachi,2018,p 18)

4.3- الفاعل L'acteur: الفاعلون الاجتماعيون هم أفراد عاديون تختلف أحوالهم باختلاف المواقف التي يعيشونها أو يساهمون في بنائها وحسب العوالم التي ينتمون إليها.

5.3- نظام الفعل Régime d'action: يستوجب النظام وجود قواعد يمكن ملاحظتها ضمن طريقة عمل الفعل أو عند التفاعل في الحياة الاجتماعية. (Nachi,2018,p 16)

وتعتبر أنظمة الفعل أحد أهم خصائص نموذج اقتصاديات العظمة، فتتنسيق الفعل وإختيار التبرير والأحكام تتم وفق قواعد نحوية تُعبر بدقة عن الكفاءة التي يتمتع بها الفاعلون، فتجعل أفعالهم وأحكامهم متقاربة بناءً على تجاربهم وعلى الخبرة، ويتحدث محمد ناشي عن المعرفة الضمنية أو الاتفاقية والتي تمنح الفاعلين القدرة الإدراكية لوضع أنفسهم مكان الآخر، وتوقع خياراتهم ورد فعلهم وأحكامهم. (Nachi,2018,p 19-20)

6.3- التبرير **Justification** : يشير التبرير إلى مجموع المبادئ والحجج التي يستند إليها الأفراد في إثبات شرعية الفعل في موقف نزاع. بالنسبة لبولتانسكي التبرير عبارة عن نظام يتمحور حول الفعل وإثبات الفعل، اعتماداً على قدرة الفرد الخطابية في إثبات الحجة بِنِيَّةٍ وضع حدٍّ للخلاف أو النزاع من أجل الوصول إلى ما سماه بالتوافق أو الاتفاق، اعتماداً على أسس قيمية وأخلاقية يتقبلها المجتمع الحاضن للفعل ما يطلق عليها صفة الشرعية.

7.3- الامتحان **Epreuve**: "يُعتبر مفهوم الامتحان أحد أهم المفاهيم الرئيسية في علم الاجتماع البراغماتي، من حيث أنه يُلخِّص في حد ذاته روح وخصوصية هذا الأسلوب" (Nachi,2018,p 21). يمكننا القول استناداً إلى معطيات هذه النظرية أن الامتحان يحمل مفهوم المواجهة، فهو اللحظة التي يختبر فيها الفرد مؤهلاته وكفاءته قصد إثبات الحجة على شرعية الفعل الذي قام به. وتنطلق هذه العملية من الشكّ حيث يُحاول الفرد في كل موقف من مواقف الحياة العادية أن يختبر قدرته على التحكيم وتبرير تصرفاته وأفعاله التي يزول الشكّ أو اللّايقين حول صحّتها أو عدم صحّتها بعد الدّفع بها إلى الامتحان، وعلى هذا ينظر بولتانسكي إلى الحياة على أنها سلسلة لا متناهية من الامتحانات، فالحياة ساحة نزاع متكرر يستهدف من خلاله الامتحان تحسين العالم الاجتماعي. إذا نظرية النقد في ظل السوسولوجيا البراغماتية نظرية تبحث في تحقيق النّفع العام، إذ تهتم بعمليات الإبداع التي يخلقها الفاعلون من أجل إثبات ما يعتقدونه الأفضل، كما تهتم بالذكاء الاجتماعي الذي يُظهره هؤلاء الفاعلون أثناء محاولتهم الوصول إلى فضيّ النزاع استناداً إلى مبادئ أخلاقية عامة ومشاركة.

ويلخّص ناشي فكرة الامتحان في قوله: "هو العملية التي نَحكم من خلالها على قيمة الفكرة، الصفات الفكرية أو الأخلاقية للعمل أو الشخص"، و تأسيساً على هذا فهو اللحظة التي يُثبت فيها الأفراد مهاراتهم في الفعل أو التعيين أو التصنيف أو الحكم أو التبرير، فهي لحظة عدم اليقين بامتياز والتي تدفع بالطرفين إلى الاتفاق حول الحالة. ونظراً للأهمية التي يأخذها هذا المفهوم نجد بولتانسكي يوضح بقوله: " يمكننا أن نصل إلى حدّ تعريف المجتمع وفقاً لطبيعة الامتحانات التي تُشكّل موضوع عمل مؤسساتي ورقابي". (Nachi,2018,p 21)

وهنا تظهر قوة الامتحان الذي يُشكل أداةً رقابيةً، أداة تكشف الظلم واللامساواة وفي الوقت نفسه تعمل على إثبات عظمة الفاعل وقدرته وكفاءته في موقف معين. " الامتحان إذاً هو بامتياز لحظة مطابقة الفعل والتأهيل بهدف تبرير يدعو إلى الصالح العام". (Nachi,2018,p 22)

وفي كتابه "الروح الجديدة للرأسمالية **Le nouvel esprit du capitalisme**" 1999 خضع مفهوم الامتحان إلى العديد من التعديلات، وفاز بخصوصية ازدواجية العمل بين بولتانسكي و شيابيلو **Chiapello** ليكون بمثابة مصفوفة لتحليل تحولات الرأسمالية، في كتابه "التبرير **De la justification**" أصبح لمفهوم الامتحان أهمية أكبر بالنسبة للفاعلين الاجتماعيين، ذلك أنه في كتابه "الروح الجديدة للرأسمالية" طُرحت فكرة أن الامتحان لا يكون إلا امتحان قوة، على أنه يمكنه أن يتحول إلى امتحان شرعية. ويذكر بولتانسكي وتشابيلو أن الامتحان دائماً ما يكون امتحان قوة أي "الحدث الذي من خلاله يقيس الأفراد أنفسهم" ولكن بمجرد تسجيل الامتحان في إطار إتفاقي وتطويعه لنظام وقيود تبرير ننتقل من امتحان قوّة إلى امتحان شرعية، فالامتحان دائماً امتحان قوة ولكنه يخضع لشروط الشرعية". ويمكننا القول أن امتحان القوة امتحانٌ "عارٍ **Nue**" أين تُعرَضُ وتُوجَّهُ القوَى في "حالتها الخام الأولية"، في حين أن

إمتحان الشرعية هو "إمتحان مغطى"؛ الأول لا يخضع لمتطلبات التبرير، وتتوافق الثانية دائماً مع نموذج العدالة، ثم إن الانتقال من إمتحان القوة إلى إمتحان الشرعية يُميز تطور المجتمعات الصناعية والديمقراطية التي تتميز على وجه التحديد بتعدد الامتحانات، وكخلاصة يُمكننا القول أن إمتحان القوة لا يعرف إلا خطة "ينشط فيها المفرد" في حين أن إمتحان الشرعية يعمل وفق "المفرد والعام" أي مبدأ التكافؤ. (Nachi,2018,p 23-24)

8.3- العظمة La grandeur: أو كما يسميه بولتانسكي وتيفنو "اقتصاديات العظمة": يرتبط مفهوم العظمة بمفهوم الكفاءة التي يتمتع بها فرد دون آخر، ولهذا فهو مفهوم يتباين بتباين العوالم أو المدائن، وعليه تُعتبر العظمة كما ذهب إليه محمد ناشي مؤشراً للعمل الصحيح. ومنه فاقتصاديات العظمة نموذجٌ للكفاءة ونموذجٌ للعدالة، من حيث أنه يهدف إلى توضيح الواقع الذي يقف عنده الفاعلون عند النقد أو الاتفاق. (Nachi,2018,p 20)

4. كيف يربط علم الاجتماع البراغماتي بين المستويين الماكرو والميكرو اجتماعي؟

يمكن تلخيص موقف علم الاجتماع البراغماتي من عالم الماكرو الاجتماعي من أنها لا تفصله عن العمليات والإجراءات التي يتم من خلالها وصف الحقائق المُعالجة أو الموصوفة على مستوى الميكرو، وهذا يستوجب أن يُوجه الباحث الاجتماعي إهتمامه نحو الحقول والنشاطات التي من خلالها يتم تجميع المعلومات بوصفها موضوع البحث؛ يمكننا من خلال هذه الرؤية القول أن السوسيولوجيا البراغماتية تحاول أن لا تتخلى أبداً عن مخطط المواقف، أي مستوى الميكرو، وقد يظهر إعتباراً لهذا عدم إهتمامها بالماكرو، ولكن على العكس فكل موقف مدروس سيرتبط بموقف آخر أو سيرتقي إلى مستوى آخر فترتقي معه الدراسة ليصل البحث إلى مستوى الماكرو. (Barthe,De Blic et autres,2013,p 178)

وعليه يهتم علم الاجتماع البراغماتي بدراسة أشكال الشموليات التي تنطلق في الواقع من مواقف فردية، أو بعبارة أخرى المواقف الفردية التي تتطور لتشكل حقائق جماعية، ما يدعم تطور مختلف الظواهر الاجتماعية، وعليه فهو علم يهتم بالفعل الذي يُحدثه الفاعل الاجتماعي حقيقة ولكنّه يهتم كذلك بالمؤسسات ذات الطابع السياسي (بالدولة وإداراتها)، بالتنظيمات ذات الطابع الاقتصادي (الرأسمالية، الأسواق، المؤسسات) الجماعات السوسيو مهنية (الإطارات، الأطباء، المعلمين، الصحفيين ...)، ولا تتخلى في دورها هذا عن مقارنة مقارنة عمليات إجتماعية محددة تُلاحَظُ في ظروف مختلفة. (Barthe,De Blic et autres,2013,p 179)

وفي سبيل التوفيق بين المستويين الميكرو والماكرو رفضت هذه المقاربة كون إثبات حقيقة ما هو عليه الواقع وفهمه يقع على عاتق الباحث الاجتماعي وحده، ذلك أن دراسة كل ما هو اجتماعي يتطلب الاقتراب أكثر من الواقع المدروس، فإذا كان الماكرو يُظهر الصورة التي يظهر عليها الواقع، فإن مستوى الميكرو هو واقع الأداء أي النتيجة الواقعية والحقيقية للملاحظات الإمبريقية. (Barthe,De Blic et autres,2013,p 180)

5. التوفيق بين الظرفية والتاريخية ضمن إطار النقدية:

تهتم السوسيولوجيا البراغماتية بلحظة ملاحظة الموقف أو الفعل، لذا تُعتبر الموقف حاضراً الفعل – النشاط لحظة تأديته -، وهي على هذا تهتم بدراسة المواقف الحاضرة والماضية معاً، لذا فهي تشترط في الباحث الاجتماعي قدرة

الباحث في مجال التاريخ الحريص على إحياء المواقف الماضية واستحضارها ضمن الأفق الفاعل وفق ما أراده أو ما عبّر عنه الفاعلون، ولكنّها حريصة في الوقت ذاته على أن لا يُلجقَ الباحث المعارف الحديثة التي توصل إليها بالموقف الماضي وفاءً لصحته. وهنا يظهر إتجاهان في قلب علم الاجتماع البراغماتي، الأول يُطالب الباحث الاجتماعي بأن لا يأخذ بعين الاعتبار أيّ جزء خارجي عن الموقف أو الفعل عند تحليله للواقع الاجتماعي المدروس، ووفقاً لهذا الإجراء فإنّ الخلفية التاريخية للموقف المدروس لا تُدمج في التحقيق إلا إذا دعا إلى ذلك الفاعلون الاجتماعيون المشاركون في الموقف صراحة، وعليه سيتعلق الأمر بدراسة ضمن أيّ مناسبة ووفق أيّ إجراء تطبيقي، أو بمساعدة أيّ نمط دعائي مادي وتنظيمي سيشير الفاعلون إلى الماضي؟ (Barthe, De Blic et autres, 2013, p 180-181)

أما الاتجاه الثاني الذي تبنته السوسيولوجيا البراغماتية لتستعين به في تحليلاتها الظرفية الراهنة فهو التحقيق في ماضي مجتمع ما، أو جماعة أو جهاز تنظيمي، لمعرفة ما يُمكن أن يواجهه الفاعلون المعاصرون ضمن أفعالهم وأحكامهم، والتعقيدات التي قد تُصادفهم، أو الموارد التي تقع تحت أيديهم والتي يتوارثونها عن سابقهم؛ وفق هذا الموقف يتطلب الأمر ملاحظة الأفعال والممارسات في ظرفية حدوثها ثم ربطها مع الكيفيات التي تهيكلت بها تاريخياً أو الأسباب التي دعت إلى وجودها، وعليه قد يقع على عاتق الباحث ضمن هذا المنهج التحقيق في البناء التاريخي لبعض أشكال الأفعال الفردية أو الجماعية، ذلك أن هناك مواقف لا تُفسَّرُ إلا في ضوء تتبع مسارها التاريخي، ما يدفع بالباحث محاولة إعادة بناء دينامية النزاع التي قادت إلى المواقف المحدثة، ومن أمثلة هذا المنهج النقد الاجتماعي للرأسمالية وكيف دخلت تدريجياً في أزمة في فرنسا في السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

(Barthe, De Blic et autres, 2013, p 182)

وعليه ليس الهدف من التحقيق التاريخي إعادة بناء إستراتيجية تاريخية للموقف أو الظاهرة المدروسة ولكن وضوح أفضل للمواقف الراهنة، فملاحظة الحاضر هي التي تستوجب التوجه نحو الماضي وليس العكس، على أنّ السّير من الماضي نحو الحاضر يستوجب من الباحث التزود بإشكالات جديدة ونظرة أكثر عمق للمواقف الراهنة. وعليه لا يتوجب على الباحث الاجتماعي البراغماتي أن يثير تساؤلات ذات طابع تاريخي عند تحقيقه إلا شريطة أن يُثار هذا من قبل الفاعلين أنفسهم صراحة، إنطلاقاً من التساؤل حول الأسباب التي جعلت الإرث الماضي على علاقة بالفعل الحاضر. (Barthe, De Blic et autres, 2013, p 183)

6. موضوع الهيمنة بين نظرية النقد - بولتانسكي - والنظريات النقدية - بورديو - :

على إختلاف النّظريات النقدية من حيث تقاليدها ومدخلها إلا أنها تهدف إلى فهم واقع الهيمنة وذلك من خلال تحديد الأسباب وتشخيص المواقف ونتائج علاقات القوة ضمن سياقات تاريخية محددة؛ أول ما ذهب إليه بولتانسكي وفق منظور نظرية النقد هو التمييز بين المصطلحين: "السلطة **Pouvoir**" و"الهيمنة **Domination**"، عامّة يمكننا القول أن الأولى هي القدرة على فعل الشيء، في حين أن الثانية تصف موقف إجبار شخص ما على فعل شيء ما بطريقة محدّدة، فالأول إذاً مُتعلّق بالمهارة على فعل الشيء في حين يُشير الثاني إلى مهارة التحكم في أفعال فرد أو أفراد ما بطريقة رمزية خارجية، ما يدفعنا إلى التفرقة بين ما ذهب إليه علم الاجتماع النقدي لبيريور ونظرية النقد لبولتانسكي، حيث وفق نظرة هذا الأخير ممارسة السلطة أو الاستسلام لسلطة ما لا يخفى عن إدراك الفاعلين، ذلك

أن العلاقات السلطوية هي الأكثر بروزا للعيان القابل للمُشاهدة، فالفاعل على علمٍ مُطلق بالسلطة الممارسة عليه (Susen, 2012, p 691). بالمقابل يذهب بورديو إلى أن الفاعلين لا يشعرون بالسلطة ولا بالهيمنة الممارسة عليهم، ذلك أنها غير مُشاهدة فلا يُدركها الفاعل.

ويَتَّهم بولتانسكي النظريات الاجتماعية التي تناولت الهيمنة بالتحليل بكونها نظريات لا تدعو إلى التغيير، بل تكتفي بإبراز الأفعال الخفية التي تُجسد الهيمنة، بل إن النظريات النقدية الاجتماعية التي مثَّلها كارل ماركس ومدرسة فرانكفورت وبوردو وغيرهم لم تتناول بعمق الأسباب التي تدفع بالأفراد إلى الاستسلام للهيمنة، ويُفسر بولتانسكي هذا الواقع من أن علم الاجتماع قد استوحى مفهوم الهيمنة من الفلسفة السياسية، فاكتمى بوصف الواقع دون الاهتمام بالمشكلات التي تُولدها الهيمنة؛ ثم لأنها إكتفت بملاحظة الميدان عن بُعد دون الاهتمام بتبويرات وتفسيرات الفاعلين.

(Boltanski, 2013)

فما يلاحظه الباحث الاجتماعي في الميدان قَلَّة ما يكون علاقات هيمنة ولكن علاقات سلطة، وتُميز علاقة السلطة في كل مرة يُمارس فيها الفاعل فعلاً مُنقاداً بأمر خارجي سواء كانت المنفعة من الفعل خاصة أو عامة، ويُشترط لهذا ظهور عنصر الطاعة، وكمثال يذكر بولتانسكي العلاقة بين الكبار والصغار، ففكرة الخضوع إذلاً لا تغيب عن ذهن الفاعل، ومنه العلاقات المبنية على السلطة عادة ما تكون مرئية فمن السهل إذا أن تشكل موضوعاً لعلم الاجتماع الامبريقي، وأغلب علاقات السلطة قد شرعتها العادات والتقاليد أو التنظيمات والقوانين؛ بالمقابل الخاضع للهيمنة يضع نفسه في خدمة الآخر محفوفاً بالإكراه أو خشية العقاب وإن أظهر للعيان أنه يقوم بالفعل عن إرادة حرة.

(Boltanski, 2013)

ففي حين تَحَدَّثَ التيار النقدي عن الهيمنة اللاشعورية وحصروا مهمة علم الاجتماع في رفع الستار عن الموضوع (بوصفها سوسيولوجيا كاشفة)، جعل بولتانسكي مهمة علم اجتماع النقد تسليط الضوء على تعدد وتنوع المواقف وقدرة الفاعلين على النقد بما يتماشى وطبيعة كل موقف، فالفاعلون يتمتعون بقدرة على التعبير عن معاناتهم وفرض عدم الرضا، فالنقد إذا ليس وظيفة يحتكرها الباحث أو الخبير الاجتماعي الذي يحتل موقعا بعيدا عن الهيمنة، ولكن هي مهمة الفاعل الذي يراها، ذلك أن كل فرد قادر على ترجمة الحقيقة (الواقع)، فالنقد له سحر يخلق التغيير، ومنه يدعو بولتانسكي إلى إعطاء مكانة أكبر للفاعلين الذين لديهم قدرة على النقد، وتوفير الموارد الملائمة للذين لا يملكونه بعد.

وفي كتابه "النقد De la critique" يستحضر بولتانسكي ما تبناه "علم اجتماع النقد" مقابل "علم الاجتماع النقدي" ليبيِّر بورديو في محاولة لإعادة بناء مفهوم جديد للهيمنة. والمُدقق في مصنفات وأعمال بولتانسكي يلمس عدائية نظرية بين التنظير الذي أسسه بورديو وبين ما يسعى بولتانسكي إلى تأسيسه على الرغم من سنوات العمل التي جمعت بين الباحثين.

ومن المآخذ التي أخذها بولتانسكي على بورديو تعريفه للهيمنة التي صرّح أنها على قوتها غامضة وشاملة، ذلك أن بورديو لم يُولِّ أهمية لقدرة الفاعلين الاجتماعيين على النقد، وذلك بمقتضى عدم قدرتهم على إدراك وضعيات الهيمنة التي يعيشونها، على العكس من ذلك يرى بولتانسكي أن الأفراد يعيشون تجارب واعية.

7. منهجية التحقيق التي يقوم عليها البحث في علم الاجتماع البراغماتي:

تقع على عاتق الباحث البراغماتي مهمة فكِّ شفرة الرموز المختلفة التي تخلفها العلاقات الإنسانية والتعرف على مضمون النقد الذي يمارسه الفاعلون الاجتماعيون، ذلك أن النقد وفق هذه المقاربة ملكية عالمية لا تشريف خالص لعلماء وباحثي علم الاجتماع. (Susen, 2012, p 688) فالفرد هو الذي يشارك غيره في صنع الحقيقة التي يتدارسها علماء الاجتماع الذين لا يستطيعون فهمها إلا بعد تنصلهم عنها.

إذاً علم اجتماع بولتانسكي يهتم بطبيعة ووظيفة علم الاجتماع من منظور اجتماعي براغماتي ونقدي، فتجعل مهمتها تنصب على تحليل العالم الإنساني من حيث تأسيس العلاقات الاجتماعية وتطورها، وكمقاربة براغماتية تستهدف التحليل الدقيق لطبيعة الممارسات الاجتماعية، وذلك للأهمية الكبرى التي تُولِّها للفعل. وكمقاربة نقدية فهي مُمثلة وموصوفة بالتحقيق في طبيعة ودور الممارسات والأفكار النقدية التي يتمتع بها الأفراد العاديون. (Susen, 2012, p 689)

مهمة نظرية النقد في ظل علم الاجتماع البراغماتي وصف وتحليل الطرائق التي يتفاعل بها الأفراد مع بعضهم البعض ومع الأشياء المحيطة بهم، وقدرتهم على نقد مواقفهم وتصرفاتهم وتصرفات الآخرين في ظل ممارسة حياتهم الاجتماعية. وعليه اعتمدت هذه المقاربة منهجية تتبنى أدوات جديدة تهتم بسير التحقيق الميداني وجمع البيانات، في إكتشاف الواقع والتفكير في كل حالة على حدة (الابتعاد عن التفكير الشمولي الذي عُرف به علم الاجتماع التقليدي)، واستخدام النزاعات والمواقف المختلفة كمدخل للنظام الاجتماعي. (Barthe, De Blic et autres, 2013, p 175)

هذا ويذهب علم اجتماع البراغماتي إلى أنّ منهجية التحقيق تقوم على ثلاث مراحل:

(Barthe, De Blic et autres, 2013, p 201)

أولاً: بداية التحقيق وتقوم على الوصف الدقيق لما يفعله وما يقوله الفاعلون، قصد إظهار كفاءاتهم النقدية وتتبع كيفية ظهورها وتطورها وفق المواقف المختلفة. ومن المهم وفق هذه الخطوة إحترام مبدأ التماثل، وهذا يعني وصف بأمانة الدعائم المادية التي يستخدمها كل طرف من أجل إثبات الحجة على ما يقول أو تبرير موقفه علانية.

ثانياً: على الباحث البراغماتي بعد ذلك أن يتتبع بالتحقيق الطريقة التي من خلالها تكونت هذه الكفاءات أو ما شجعها على النمو والتطور، أو على العكس ما أعاقها لدى الفاعلين القاصرين ضمن الأجهزة التي ينشطون ضمنها، ثم قدرتهم على الحصول على الدعائم المادية أو التنظيمية التي تساعدهم على الفعل والتحكيم والتبرير وإبداء الحجة.

ثالثاً: البحث في الأمور التي إذا تمَّ تغييرها في الأجهزة المدروسة تنقص حظوظ الفاعلين أو تزيد من قوة التبرير والتحجيج وتسمح لهم بتطوير القدرة على النقد أو تسمح لهم بالوصول إلى الدعائم المادية والتنظيمية التي تمكنهم من ذلك.

هذا وقد توجّه عددٌ من الباحثين العرب بالاهتمام نحو السوسيولوجيا البراغماتية نظراً لقدرتها على إستيعاب الأحداث المعاصرة التي عاشتها المجتمعات العربية لاسيما قدرة الفاعلين على إدانة الظلم اللامساواة، منهم نذكر الأستاذ محمد ناشي الذي إهتم بدراسة طرائق تطبيق السوسيولوجيا البراغماتية في المجتمعات المغربية، فحركات الاحتجاج التي تطورت في السنوات الأخيرة ليست إلا أفعالاً ينتقد من خلالها الفاعلون أوضاعاً مُختلفة، فتتوجه سوسيولوجيا النقد بالدرس نحو مبررات الفاعلين واستنكارهم العلي قضايا تتعلق بالمطالبة بالعدالة أو المساواة قصد الوصول إلى إتفاق بين المصالح المتعارضة يُحتكم فيها إلى مبادئ أخلاقية عُليا، هنا تظهر قدرة علم الاجتماع البراغماتي في إحضار مثل هذه المواقف المبنية على النزاع والتي يسعى الأفراد من خلالها تبرير أفعالهم وأحكامهم لشرعنتها، كما يهتم بوصف الطريقة التي يُعبر بها الأفراد عن هذا الاستنكار والبحث عن القاعدة الأخلاقية التي تساهم في فض النزاع وتعزيز العدالة في ظل الحياة الاجتماعية المشتركة، هي القضايا التي تنطلق من الفرد فلا تلبثُ أن ينتقل فيها الفرد من فرديته الخالصة إلى العام المُشترك، ما يُسمّيه بولتانسكي « Montée en généralité » .

- خاتمة:

أُتِمّت نظرية النقد في ظلّ علم الاجتماع البراغماتي على أنها نظرية غامضة ومعقدة، أو بكونها نظرية غير مكتملة بُنيت على عَجَلٍ أو أنها طُوّرت عن عامل التنافس، ولكن بولتانسكي يُصرُّ على أن نظريته نظرية مفتوحة على كلّ بحثٍ .. كلّ جهدٍ وكلّ رؤية معاصرة.

وعلى الرُغم من الانتقادات التي تعرّضت لها هذه المقاربة، إلا أن لها من القوة والتأثير ما يستوجب الاهتمام، فهي نظرية تسعى إلى نقل علم الاجتماع من النظرية الكلاسيكية إلى الميدانية البحتة، نظرية تهتم بواقع الفاعل وتجعله الأكثر قدرة على فهم واقعه وحقيقة عالمه الاجتماعي.

إن علم الاجتماع البراغماتي أو علم إجتماع النقد كما سماه بولتانسكي سوسيولوجيا المجتمعات المعقدة في عصر العلوم والتكنولوجيا، تهتم بقضايا العدالة لتُصبح علماً للأخلاق بامتياز، هي سوسيولوجيا تنظر إلى كل فرد بتميز، وعليه على الباحث الاجتماعي أن لا يُضيع جهوده في ملاحظة كُليّة الظواهر فالحقيقة قد تكون شيئاً آخر، شيءٌ موجود في تجربة الآخر.

- المراجع المعتمدة:

01 - كابان فيليب، دورتيه جان فرانسوا، تر: إياس حسن، (2010). علم الاجتماع: من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية، أعلام وتواريخ وتيارات، ط1. سورية، دمشق، دار الفرقد.

02- Barthe Yannick, De lic Damien et autres, (2013). Sociologie pragmatique : mode d'emploi, Revue politix, Volume 26, N 103, pp 175-204.

03- Benatouil Thomas, (1999). Critique et pragmatique en sociologie. Quelques principes de lecture, Annales. Histoire, Sciences Sociales, 54^e année, N2, pp 281-317.

04- Dupret Boudouin, (2004). Sociologie pragmatique, Dictionnaire de la justice, L.Cadiet (Ed) ; pp1245-1248.

05- Luc Boltanski, (2013). La sociologie est toujours critique, <https://www.youtube.com/watch?v=13njAclRP6Y&t=3643s>.

06- Nachi Mohamed, (2018). Au fondement de la sociologie pragmatique Éléments pour comprendre un « style » sociologique, Regards pragmatiques sur la sociologie pragmatique Fondements, réceptions et extensions, Volume 28, Mai 2018, pp 11-36.

07- Susen Simon, (2012). Une sociologie pragmatique de la critique est-elle possible ? Quelques réflexions sur De la critique de Luc Boltanski, Revue philosophique de Louvain, Troisième série, tome 110, N4, pp 685-728.

08- Taupin Benjamin, (2015). L'apport de la sociologie pragmatique française aux études critiques en management, Revista de Administracao de Empresas, Sao Paulo, Volume 55, N2, pp 162-174.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

بوزار ربيحة دينارزاد، (2020) علم الاجتماع البراغماتي ، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 11(العدد 2)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 59-74.